هذه الحرب

نـلان (1)

يكاد الرأي يتفق بين علماء الاجتماع البشري على ان هذه الحرب ليست حرباً بالمعنى العادي المألوف من الحروب ، بل هي مزيج من لونين من النضال : النضال القومي ، والنضال الاجتماعي الذي يرمي الى احداث انقلاب في حياة البشر . في الناحية الواحدة نضال قائم بين الأمم المتحاربة ، وفي الناحية الاخرى نضال قائم بين طبقات من الناس ، وآراء يعتنقونها في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي . اما الاول فالوحدة فيه هي الدولة المؤتلفة او المحالفة لدول اخرى . وأما الثاني فيتعدى حدود الدول ، ويخرج عن نطاق الولاء القومي ، بل ربما مزّق الجبهة القومية وقطع أوصالها . وهذا اللون من النضال ، هو مظهر الانقلاب في نظم العمران ، واللوحة الواسعة التي ترسم عليها ، صور المعارك الدائرة الرحى في البر والبحر ، وفي أطباق الفضاء

فحالة العمران التي يتجاذبه هذان اللونان من النضال ليست بالأمر الذي يسهل تبسيطه وتبين العوامل المتعددة المتفاعلة فيه . وكثيراً ما يخطئها الجمهور من الناس . وقد يخطئها فريق غير يسير من قادة الجمهور . وكل عمل يعمل يجب ان ينظر فيه قبل الاقدام عليه ، ثم يجب ان يحكم عليه بعد انجازه ، ثم يجب ان يقاس في الحالين ، بهل هو عمل يصلح من الناحية القومية ، أو هو مخالف لمصلحة طبقة من الطبقات ، أو كتلة من الكتل . وقد تمثلت هذه الحقيقة في غير بلد واحد قبل يونيه ١٩٤٠ ، وقبل ٧ دسمبر ١٩٤١ . وقليل من الناس يستطيع ان ينظر نظراً مجرداً الى التغير الدائم في ازمة العمران المتعددة الوجوه ، المتداخلة العناصر ، فيميل الى اقامة الوزن الاكبر في اعتباره ، للوجوه التي تعنيه ، وقمه في المقام الاول ، مهملاً الوجوه الاخرى ، بعض الاهمال او كله . فمن الناس ، من يعنيه في المقام الاول ان هناك طائفة من الدول ، المعتدية ، تحاول ان ترفع نير طائفة اخرى من الدول القائمة ، لتحل هي بدورها امبراطوريات جديدة . ومن الناس كذلك ، من يعنيه في المقام

(1) نص حديث أذاعه رئيس التحرير من بيروت ٢٨/٢/١٩٤٤

الاول ، طابع الانقلاب ، الذي يتميز به العهد الأخير من الحضارة . فيعتقد ان النضال الاصيل انما هو صراع بين الافكار أو صراع بين النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تتجلى فيها هذه الافكار ، او تسعى الى ابرازها فيها . وقد يذهب بعضهم الى أبعد حد في هذا النظر ، فينكر النوع الاول من النضال ، اي النضال بين الامم ، ويؤكد ان هذا اللون من النضال متصف بصفة مصطنعة تخفي وراءها النضال الثاني وهو وحده النضال الصحيح الأصيل .

والحقيقة طبعاً ، هي ان كلاً من هاتين المدرستين ، من مدارس الفكر واسعة متأثرة بالنشأة الفكرية والخلقية التي نشأت عليها ، ميالة الى ان تعلي من شأن المسائل التي تهمها في المقام الاول ، مهونة المسائل الاخرى . وليست هذه الحالة بالحالة الجديدة ، المقتصرة على هذا العصر من عصور الحضارة . فعاصرو الثورة الفرنسية ، وعهد نابوليون واجهوا هذه المشكلة ، كما تواجهها أمم الأرض الآن . ولا يزال المؤرخون الى الآن غير متفقين على اي الأثرين الكبيرين من آثار نابوليون أهم وأجدر بالتقديم . أهو أن نبوليون فتح معظم اوروبة ، فأفضت فتوحاته الى قيام حدود سياسية جديدة ، وتوازن سياسي جديد ؟ أو أن نبوليون نشر عن طريق فتوحاته الافكار الحية الحركة الدافعة التي كانت منطوية في الثورة الفرنسية نفسها ؟

وما حدث حينئذ حادث الآن . ولكن المشقة التي نعانيها في استشفاف الحقيقة هي ان ما هو حادث الآن حادث لنا . فنحن في غماره ، أردنا أم لم نرد . والرجل الذي ينكون عن تدبره ، واستيضاح ما يجب عليه ، بصدق واخلاص ، هو أحد دعاة الهزيمة في معركة السلام والحضارة ، ويحق عليه ما يحق على دعاة الهزيمة ، في حرب الدفاع عن الكيان بل أن النكير عليه أشد وأنكى لأن معركة السلام والحضارة هي معركة البشرية جمعاء . بل ليس في وسع احد الآن ، حتى ولا العالم الرياضي الذي لا يعنى الا بالرموز والمعادلات ، ان يقيم في برجه العاجي ، يطل منه على تيارات الحياة ، بغير ان يخوضها . فهذا الرجل ، يجب أن يهمه على الاقل ان يتاح له الجو الحر الذي يستطيع فيه ان يفكر ويبدع ، على سجيته ، وتاحة هذا الجو الحر مسألة اجتماعية يجب ان تعنيه .

ان تاريخ البشرية ما فتيء منذ الازل نضالاً بين طرازين من الرجال . أما الاول فهو الرجل المنتج المبدع ، الخلاق . وهذا الرجل لا يحتاج الى شيء كحاجته الى الاستقلال ، كي يفكر ويعمل . فلا هو يسعى الى السلطان والسيطرة على الغير ولا يحتاج اليهما ، ولكنه

كذلك رجل لا تستطيب ان تكرهه على التفكير والعمل اكراهاً . واما الآخر فهو المستكين المسيّر انه نوع من الطبائع يخشى الاستقلال ويرغب في ان يؤمر فيطيع . وان يوضع له النظام المحكم الدقيق فيجري عليه ، فيكون فيه ترساً في عجلة في آلة كبيرة . فهذا الرجل يوافق حتى النظام الذي يقوم الطاغية على رأسه — أيّا كان منشأ الطاغية — لان ذلك يعفيه من ضرورة التفكير والعمل المستقل

ان السلطان والحرية غير متنافيين ، وفي وسع البشر ان يتمتعوا بالحرية بغير ان تعم الفوضى ، وفي وسع الحكومة ان تمارس السلطان بغير ان ينتشر الاستبداد . والناس يجب ان يكونوا سواء امام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة ، أو شهوة شرطي سري . وهذه القواعد جميعاً مردها الى الايمان بأن للانسان الفرد كرامة في ذاته ، فيجب ان يمنح حريات أساسية لكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق ، وهذه الحريات هي روح الحضارة ، واليها مرجع كل ارتقاء

ونحن ابناء هذا الشرق ، في دوله المختلفة ، قد جنبنا تجنباً كبيراً ، معظم أهوال الحرب — بالمعنى الاول — وعنها . ولكننا لم نجتنب ، ولن نجتنب مشاق الحرب الثانية ، أو النضال الثاني . فمعركة الحضارة لا تنتهي . وصراع الحرية صراع مستمر يتجدد كل جيل . وأنكر خطيئة نبلى بها في هذا العهد الذي يتمخض عن صور جديدة من الاجتماع البشري هي خطيئة عدم المبالاة . وكلما أمعنا في دراسة الاسباب الباعثة على نهوض الحضارات وانحطاطها وجدنا صفحات التاريخ حافلة بالامثلة ، على ان كل تقدم مرده الى الافراد العاملين المبدعين الخلاقين ، فهؤلاء يجب ان يربوا التربية الحسنة وان يتاح لهم الجو الحر الذي يستطيعون ان يبدعوا فيه وان يعملوا وهذا هو الهدف الانساني الاعلى

---

* وضع « كروتشي » الفيلسوف الايطالي مجلداً ضخماً في فلسفة التاريخ جعل عنوانه « التاريخ : قصة الحرية »

* على رجال العلم ان يخاضوا حربين — حرب المدافع والطائرات والدبابات ، عما يضيفونه الى أدوات الحرب من ضروب التحصين والاتقان ، وحرب الفكر لتحقيق الحرية التي لا يزدهر علم ما الاّ في ظلها كتاب « العلم ونظام العالم »